مجلة الشرق الأوسط للنشر العلمي
المجلد (٧) العدد (١)
الإصدار الحادي العشرون
٢٠٢٤ (١٦٩-١٥٤)

الحركة العلمية لدولة المرابطية

الدكتور: ابراهيم لبصير

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٩ مارس ٢٠٢٤م

وجهت عدة اتهامات للمرابطين من طرف بعض المستشرقين تصفهم بأنهم أهل صحراء بدو، حققوا انتصارات دينية عسكرية عملت على تأخير الزحف الصليبي على الاندلس لمدة أربع قرون، وفي الوقت نفسه حطمت صرح الحضارة الاندلسية ومظاهرها لعدم مبالاتهم بأساليب الحضارة المتمدنة، وبهذا خلا عهدهم من الاتجاهات العقلية الفلسفية والفكرية كما تأخرت عندهم العلوم والفنون والشعر والأدب.

ومن بين هؤلاء المستشرقين الهولندي "ذوني" الذي يصفهم بالجهل ويسم عصرهم بالظلام قائلا:" كان مجئ المرابطين الى بلاد الأندلس نذير بانقلاب بعيد المدى، فقد دالت دولة الحضارة، وقامت الهمجية على انقاضها"[1]. وكل هذا بعيد كل البعد عن الحقيقة اذا لم يكد المرابطون يستلمون قيادة البلاد المغربية حتى عملوا على توحيد افريقيا الشمالية خاصة والغرب الاسلامي عامة تحت شعار العدالة والمعرفة، وفعلا وفقوا في توحيد واعادة تنظيم البلاد، وتطبيق العدالة والمساواة بها، كما سعو الى تعميم الحركة العلمية وعملوا على ازدهارها[2] والشئ الذي أعان المرابطين في بلوغ هدفهم هذا هو وضعية الأندلس. فان اشتغال ملوك الطوائف بتوافه الأمور كبناء القصور الضخمة وتلاعبهم بشؤون الأمة و العمالة في بعض الاحيان لملوك قشتالة ضد بعضهم البعض، دفعت العديد من العلماء الى مغادرة الأندلس والبحث عن ملجأ لهم، فكان

[1] محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس، منشورات وزارة الاعلام العراقية، دار الرشيد للنشر، 1980، ص: 61.

[2] حسن السائح: الثقافة والتعليم في عصر المرابطين، مجلة اللقاء، العدد السادس، عشت 1968، ص: 34.

هذا الملجأ هو أرض المغرب، مما ساعد على تدعيم أسس الدولة الجديدة، والى جانب العلماء الاندلسيين نجد كذلك علماء القيروان الذين أموا المغرب الأقصى بعد أن قضى بنوهلال على القيروان، وهدموا معالمها، وخربوا مملكة بني زيري الصنهاجية، فتفرق العلماء في المغرب الأقصى وحسب ما ذكره النويري في نهاية الادب" ان مدارس القيروان اقفرت بعد غارات عرب بني هلال، وهكذا كان القرن الرابع، نهاية مجد القيروان، وبداية ازدهار الثقافة في المغرب"3.

فحاول المرابطون أن يستفيدوا من العقلية الاندلسية، وأن ينتفعوا من أفكارها وذهنبتها بما تتضمنه تلك العقلية من ثقافة ومعرفة، فاجتمع لهم ببلاط مراكش أقطاب العلوم ما لم يتفق اجتماعه في عصر من العصور: " فاجتمع لهم في بلاطهم بمراكش من الكتاب وفرسان البلاغة وأقطاب العلوم ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار، وحتى اشتبهت حضرتهم حضرة بني العباس في صدر دولتهم"4.

فجل المصادر مثل الاحاطة والصلة والمعجب أجمعت على أن المغرب عرف في هذا العصر عدة مشاهير للادب والعلوم والفقهاء، بل ان المرابطين لم يحفلوا بالعلماء و الفلاسفة والادباء والكتاب فحسب بل استقدموا الفنانين والصناع من الأندلس، كما استدعى المرابطون أشخاص معنيين للاستفادة من علومهم مغدقين عليهم العطايا والنعم، فقد ذكر صاحب النفح الجزء الثالث ص 479.، أن عليا بن يوسف استدعى الفيلسوف المتزهد مالك بن وهيب من اشبيلية الى حضرة مراكش وصيره جليسة وأنيسه، كما اهتموا بالكتاب والبلغاء الاندلسيين مشجعين أياهم على الكتابة والتأليف، فكان لابراهيم بن يوسف بن تاشفين دورا كبيرا في تشجيع الكتاب والشعراء هذا الامير الذي يعتبر منقد دولة الادب بالأندلس في المئة السادسة اذ تألق نجمه في أفق الحمراء وشب في الاوساط العلمية التي كان يتخلل أنديتها الادبية5. فابن خاقان يذكر في صدر كتابه" قلائد العقيان" أنه أقدم على تأليف كتابه هذا مدفوعا بتشجيع من هذا الامير6.

وبهذا ضاقت رحاب القرويين بمن يفد اليها من طلاب ورجال العلم حتى اذا كان أوائل القرن السادس للهجرة، اجتمع العلماء وقرروا أن يتكلف القاضي عبد الحق بن معيشة باصلاح القرويين وتوسيعها مشجعا من طرف علي بن يوسف، فقام هذا القاضي بشراء كثيرا من الاملاك المجاورة، فتوسعت القرويين وزيدت فيها بلاطات وأبواب، وبدون شك فقد نمت الحركة الدراسية أكثر من أي عهد مضى.

كما ضاقت العاصمة مراكش من الوفود الهائلة من العلماء والطلاب، مما جعل أمير المسلمين علي بن يوسف يفكر في انشاء جامعة اسلامية في القسم الجنوبي، فشرع في وضع

---

3 النويري أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الارب في فنون الادب، تحقيق وتعليق أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء،1985، ص:22.

4 محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، مرجع سابق، ص: 60.

5 محمد عثمان المراكشي: الجامعة اليوسفية بمراكش تسعمئة سنة1357هـ/1937م، المطبعة الاقتصادية، الرباط، ص: 142.

6 محمد مجيد السعيد: مرجع سابق، ص:61.

الحجر الاساسي لعهده الكبير، الذي لازال يحمل اسمه الى الان، وتأسس اذن المسجد اليوسفي في 514هـ الذي جعل من مراكش دار هجرة للعلماء والادباء والكتاب المنحدرين اليها من العواصم الاندلسية، فتعاظمت بذلك مظاهرها العلمية ونضجت بذورها الفكرية حتى انطوت تحت لوائها عواصم ملوك الطوائف الاندلسية، واندمجت في صفوفها7.

لقد ساعد هذا الاحتكاك بالاندلس على تنوع النشاطات العلمية و العقلية في هذا العهد حيث تحققت نهضة علمية كبيرة تضمنت أنواع شتى من المعرفة الانسانية كان لها يد فاعلة في بروز عقليات نادرة يعول على علومها لفترات طويلة في تاريخ الانسان العلمي اذ لم تقتصر أهميتها على العرب والمسلمين بل تجاوزتهم الى أوربا.

*** الدولة المرابطية و المذهب المالكي**

*** المذهب المالكي كاديولوجية للدولة المرابطية**

لما قامت الدولة المرابطية بالمغرب وجدت أمامها عدة مذاهب متناقضة من بورغواطية وشيعية، ومالكية، فأقرت المذهب المالكي كمذهب رسمي للدولة خاصة وأن قيامها أرتكز على كبار فقهاء المالكية انذاك، أبو عمران الفاسي ووجاج بن زلو اللمطي، وعبد الله بن ياسين الذين عملوا مع جملة من تلامذتهم على نشر هذا المذهب في الغرب الاسلامي، فالمغرب والاندلس، ومن هنا يمكننا أن نطرح سؤالا ملحا: لماذا اتخذ المرابطون مذهب مالك و لم يتخذوا مذهبا اخر؟، الجواب على هذا السؤال واضح، فتاريخ الدولة المرابطية ابتدأ بحادث ترك اثرا عميقا في مجريات الاحداث، والذي تمثل في لقاء يحيى بن ابراهيم الكدالي بأبي عمران الفاسي زعيم المالكية، وما نتج عن هذا اللقاء من تركيز المذهب المالكي في المغرب واعتباره المذهب الرسمي السياسي و القانوني للدولة.

وتذكر المصادر أن من بين الاسباب التي ساهمت في نشر هذا المذهب على نطاق واسع في هذه البقاع: هجرة علماء الاندلس و المغرب الى المشرق، والتي كان في الغالب من طرف الحجاج الذين يقصدون المدينة المنورة منبع الدين يغترفون منها ماطاب لهم من علوم وفي طريقهم يعرجون على الاسكندرية، وهي أقرب ثغر أهله على مذهب مالك يأخذون مايشاؤون من فروعه وأصوله.

كما يذكر ابن خلدون أن هناك سببا ثالثا في انتشار هذا المذهب الذي يرجع الى التقارب الحاصل بين أصحاب البداوة بالمغرب والاندلس، والبداوة بالحجاز حيث مال الطبع للطبع في الغرب الاسلامي و الحجاز، فالشعائر على طريقة المذهب المالكي بقيت اذن في نظر ابن خلدون في مستوى بدائي عند المغاربة وأهل الاندلس8. وبهذا أصبح المذهب المالكي بالمغرب كحصن لصد جميع الملل والنحل المستوردة فاعتماده على النص والنقل، وابتعاده عن المنطق والقياس كان أكثر من غيره قدرة على تحقيق الوحدة الدينية والسياسية التي عرفها الغرب الاسلامي مع المرابطين.

*** مكانة فقهاء المالكية في الدولة المرابطية**

كانت سياسة الدولة المرابطية قد قامت على تعاليم المذهب المالكي فلا غرابة اذن أن يشجع أمراء المرابطين تعاليم هذا المذهب، وأن يحتموا فقهائه، وبهذا نخص القضاة والفقهاء

[7] محمد عثمان المراكشي: الجامعة اليوسفية بمراكش في تسعمائة سنة، مرجع سابق، ص: 106.

[8] الحسن الصقلي: مذكرات من التراث المغربي، الجزء الثاني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء،1979، ص: 109.

في ظل الدولة الناشئة بمكانة سامية، اذ احتلوا محلا عاليا في نطاقها، فهم موجهيها ومرشديها سياسيا ودينيا، وبذلك أصبحو يشكلون قوة جديدة لها نفوذ وسلطان لم يعهد من قبل، ففتواهم نافذة في كل كبيرة وصغيرة، ومن هنا أصبح لهم الدور الاول في قيادة شؤون الدولة وتخطيط سياستها باشرافهم على تنفيد وتوجيه تعاليم الامراء المرابطين.

وبهذا سما قدرهم وتمتعوا بسلطان عظيم حيث خول لهم يوسف بن تاشفين سلطة مطلقة وأصبحت أحكامهم مطبقة وفتواهم نافذة، فقد استفتاهم يوسف قبل أن يتلقب بأمير المسلمين فأفتوه بذلك9، بل كان خلع يوسف لملوك الطوائف بفتوى منهم10، وازدادت تدخلات الفقهاء في الشؤون الدينية على عهد علي بن يوسف عندما افتوه باحراق كتاب" احياء علوم الدين لابي حامد الغزالي" – الذي كان قد وصل الى المغرب والاندلس- نظرا لما يحتويه من نظريات كلامية وفلسفية كان يحرمها المالكيون ويخشون منها على مذهبهم، وزعيمهم في هذا القاضي بن حمدين، يقول عبد الواحد المراكشي:" كان علي بن يوسف لايقطع أمرا في جميع مملكته دون مشورة الفقهاء..."11.

ولقب الفقيه في العهد المرابطي له معنى ضمني يعني العالم بأوسع مايعطيه له الوصف ليس في الفقه وما يتصل به فقط، بل في جميع فنون العلم والثقافة المعرفة انذاك.

وخلاصة القول فان الفقهاء كانوا هم المخططين لسياسة الدولة السائرين بها الى المجد فقد ساهموا مساهمة كبرى في تأسيس والبناء، بل وحتى في الحياة الفكرية والادبية.

*** التعليم عند المرابطين**

قامت مناهج التعليم الابتدائي في جميع البلاد الاسلامية عامة والغرب الاسلامي خاصة على كتابة الخط وقراءة القران وتعاليم الصرف والنحو والشعر. أما التعليم العالي فقد قام على تفسير القران والفلسفة وأصول اللغة العربية والشعر وعلم المفردات والتاريخ والجغرافية12.

وتعتبر رسالة القابسي المفصلة لاحوال المعلمين والمتعلمين بمثابة وثيقة هامة وفريدة من نوعها حيث توضح لنا مناهج وأساليب التعليم خلال مراحله الاولى في افريقيا الشمالية، اذ تفيد بأن الصبي كان يذهب الى الكتاتيب – في سن السابعة بعد ما يكون قد تتلمذ على أبيه- التي كانت منتشرة في انحاء المدن والقرى، وقد يشترك معلم أو أكثر في تعليم الصبيان مقابل أجر زهيد، كما أن هذه الكتاتيب كانت لا تخضع لاي سلطة ادارية أو تفتيشية. أما مواد التدريس بهذه

9 محمد ولد دادة: مفهوم الملك بالمغرب من انتصاف القرن الاول الى انتصاف القرن السابع هـ دراسة في التاريخ السياسي، دار الكتاب اللبنانية، الطبعة الاولى، بيروت،1977، ص: 118.

10 بن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، الجزء6، منشورات دار الكتاب اللبنانية للطباعة والنشر، بيروت، 1971، ص: 147.

11 عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ط7، دار الكتاب، الدار البيضاء،1978، ص:171.

12 فليب حتى: تاريخ العرب، الجزء الثالث، ط2، دار الكشاف للطباعة والنشر، بيروت، 1953، ص: 669.

الكتاتيب فهي: القران والكتابة والنحو والعربية، بل حتى الشعر والحساب وأخبار العرب، الا أن أهم مايدرس هو حفظ القران سواء بطريقة فردية أو جماعية وعندما تنتهي هذه المرحلة اما ينقطع الصبي عن التعليم ويتوجه الى العمل، واما ينصرف الى المسجد والمدرسة للتبحر في العلم13. وبالنسبة لاسلوب التعليم فكان يرتكز على استظهار القران عن ظهر قلب، أو مايعرف اليوم بالتعليم اللفظي. أما فيما يخص منهاج الكتابة القرانية كانت مستمدة من التيارات الفكرية السائدة وهي تيارات دينية خالصة قسمها القابسي الى قسمين:-

١- مواد اجبارية كالقران والصلاة والدعاء والنحو والعربية والكتابة.

٢- ومواد اختيارية كالحساب والشعر، وأيام العرب.

هذه اذن هي صورة التعليم في افريقيا الشمالية ابان القرن الرابع الهجري والتي توضح مراحل التعليم العربي الاسلامي في عصره، وما بعده حيث اتخذها كل من ابن مسكويه والغزالي، وابن خلدون نموذجا مع ادخال تغييرات طفيفة. وهناك وثيقة أخرى تفيد في معرفة العلوم المتداولة بالمغرب والاندلس كتبها ابن حزم في رسالة " مراتب العلوم " فهناك علم السحر والطلمسات وعلم تاليف الموسيقى، واللحن، وعلم الكمياء. فبعد أن يتعلم الطفل الخط وتأليف الحروف والهجاء ويحفظ القران يأتي دور تعلم النحو واللغة وبعدها يحفظ الشعر والحكم والخبر ثم ينصرف الى علم العدد، حيث يحكم الضرب والقسمة والجمع والطرح وبعدها يدرس المنطق، وعلم الاجناس والانواع والاسماء والتشريع وأخبار الامم السالفة والتواريخ القديمة والحديثة وأخيرا يدرس علم الشريعة الاسلامية الذي يقسمه الى أربعة: علم القران، وعلم الحديث، وعلم الفقه وعلم الكلام14.

كما ينقل مؤلف الديباج في ترجمة القاضي ابن الوليد الباجي عن أبي العربي قوله في وصف التعليم في الاندلس: " فكان الصبي عندهم اذا عقل، فان سلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله، فاذا حنقه نقلوه الى الادب، فاذا نهض منه حفظو الموطأ، فاذا اثقنه نقلوه الى المدونة..."15.

فظلت طريقة التعليم هذه في الكتاتيب متبعة في جل الاقطار الاسلامية، و لم يشرع في تغيرها الا حديثا عندما اشتد الاتصال بين الشرق وأمم الحضارة الغربية وحيث أصبح ينظر الى التعليم على أنه احدى فروع العلوم الاجتماعية التي تتبع فيها طرق ثلاث16.

١- طريقة الاستقراء التي تبدأ بالمشاهدة الخارجية، وتنتهي بكشف القوانين كما هو الحال في العلوم الطبيعية.

٢- منهج علم النفس الذي يعتمد على الاستقراء من جهة وعلى التأمل الباطني من جهة ثانية، ومناهج تجربية واحصائية من جهة ثالثة.

٣- المنهج القياسي للحصول على النتائج.

---

[13] حسن السائح: الثقافة والتعليم في عصر المرابطين، مجلة اللقاء، العدد6، غشت 1968، ص: 36.

[14] حسن السائح: الثقافة والتعليم في عصر المرابطين، مجلة اللقاء، العدد6، غشت 1968، ص: 35.

[15] نفسه.

[16] أحمد فؤاد الاهواني: التربية في الاسلام أو التعليم في رأي القابسي، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، 1955، ص: 41.

وبهذا أصبح الباحث في تربية الصبيان يسلك طريقة مخالفة للسابق اذ أصبح هدفه هو اتخاذ النتائج العلمية كأصدق لسان وأنطق برهان. أما القابسي فهو خالف هذه الطريقة حيث اعتمد على أصول ثابتة من الكتاب والسنة أو الاجماع، والقابسي باتباعه هذا المنهج يعكس لنا البيئة التي عاش فيها لانه من العسير أن يتخلص المرء من البيئة العقلية التي شب فيها ونشأ عليها.

فالفكر في بيئة القابسي كان مقيدا بأغلال منطقية ودينية، من الناحية المنطقية انصرف العلماء الى البحث عن استقرار الانسان بطريقة المعرفة والمنهج الديني، أما الناحية الدينية فقد عمل العلماء على عدم الخروج عن تعاليم رجال الدين17، وانطلاقا من هذه المعطيات يمكن القول بأن التعليم في هذه المراحل كان خاضعا لتعاليم المذهب المالكي ومتطلبات فقهاء هذا المذهب.

*** الجوانب العلمية والفكرية والادبية عند المرابطين**

لقد كان لفتح الاندلس أثرا عميقا في بلورة الحركة الفكرية والعلمية والادبية عند المرابطين، نظرا لما كانت تزخر به من نشاطات علمية ورثتها عن العهد الاموي وظلت محافظة على اشعاعها الذي انعكس على المجال الفكري المغربي المرابطي حيث ازدهرت الى جانب العلوم الدينية التشريعية مختلف العلوم الفكرية والادبية نوعا ما.

*** العلوم الدينية التشريعية (تفسير، حديث، قضاء)**

لقد توفرت للعلوم الدينية أجواء مناسبة لنموها حيث بلغت في العهد المرابطي ذروتها لما لقيته من تشجيع واقبال من طرف الدولة، فمن المعروف أن الدولة المرابطية قامت على نظرية الجهاد ونشر الدعوة الاسلامية معتمدة في ذلك على مبادئ المذهب المالكي، وبذلك ازدهرت الى جانب الفقه المالكي دراسة التفسيرات وما يتصل به من علوم وخاصة علم القراءات حيث ظهرت عناية المغاربة بالرواية و الحفظ و الاسناد، وأشهرت اسماء كثيرة من رجال التفسير والقراءات مثل: أبو بكر محمد بن علي المغافري السبتي المعروف بابن الجوزي وأحمد التميمي الفاسي18.

وبرز في الحديث ابراهيم بن أحمد بن خلف السلمي المعروف بابن فرحون صاحب كتاب "الديباج المذهب" وكذلك القاضي عياض السبتي اليحصبي الذي وضع في علم الحديث عدد من الكتب كشرح صحيح مسلم والشفاء والالماع في ضبط الرواية، وتنبيه الانام في مشكل الحديث. وبرز كذلك في هذا الميدان ميمون بن ياسين أحد أمراء المرابطين الذي سمع بالمشرق عن أبي عبد الله الطبري صحيح مسلم، كما سمع صحيح البخاري عن أبي اسحاق المستملي وكان ميمون يحدث باشبيلية19.

اما بالنسبة للقضاء: فقد كانت للقضاء مكانة سامية في ظل المرابطين، بحيث لايفتي بشيء الا بعد الرجوع اليهم والاشارة بارائهم، فقد احترم أمراء المسلمين القضاة وأنزلوهم

17 أحمد فؤاد الاهواني: التربية في الاسلام أو التعليم في رأي القابسي، مرجع سابق، ص: 42.

18 ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الاول، ط1، دار السلمي، الدار البيضاء،1965، ص: 247.

19 نفسه، ص: 246.

في نفوسهم منزلة رفيعة حيث أشركوهم في مجالس الشورى، واتخذوا بعضهم وزراء، ومن أشهرهم قضاة العهد المرابطي، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (476-544هـ) ، وكانت ثقافته دينية في جملتها، ولكنه كان يجيد الادب أيضا ومن مؤلفاته:" الشفا بتعريف حقوق المصطفى" و" مشارق الانوار في تفسير غير الحديث" و"ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك".

اذن فتوفر هذا المناخ الديني أوجد حركة قوية في مجالات الفقه والحديث والتفسيرات والقضاء، فكثر المشتغلون بمثل تلك العلوم، فامتلأت بهم كتب التراجم والسير، بل وظهرت بعض المؤلفات المتخصصة كمؤلفات القاضي عياض، وابن فرحون.

* **العلوم الفكرية (الفلسفة، التاريخ، الجغرافيا، الطب)**

كان بالامكان تسجيل ظواهر متنوعة ومتعددة للحركة الفكرية والثقافية المرابطية، فان أول ما يسترعي الانتباه أن جل حملة الثقافة والفكر المرابطي في مختلف الميادين ان لم نقل كلهم كانوا من أصول اندلسية مولدا أو نشأة أو اقامة أو انتماء أو اصلا مع نفر قليل من سبتة أو طنجة أو فاس[20].

الفلسفة والفلاسفة عند المرابطين: لقد عانت الفلسفة والتفكير الفلسفي في ظل الحكم المرابطي، عدة مضايقات من طرف الفقهاء الذين اتسموا بالقسوة و التعنت ازاء كل جديد في الدين و الاخلاق مما سبب تحدي للحركة الفكرية حيث كان كل متفلسف متهددا بالتكفير أو النفي فهم- الفقهاء- الذين افتو باحراق كتاب الامام الغزالي" احياء علوم الدين". وقد تجاوز هذا الموقف المناوئ للفلاسفة الى المثقفين، فابن جبير الرحالة الشهير يشن حملة عنيفة ضد الفلسفة والفلاسفة، ويتهمهم بالضلال والخروج عن الدين، وهذا الموقف راجع الى ثقافته الدينية والى ميله الى راي الفقهاء ورجال الفروع[21].

رغم هذا كله أثبت العقل الفلسفي في الأندلس قوته وحدد ملامحه وشخصيته، فأعطى للحضارة الانسانية رجالا تفتخر بهم وتزد هي بانتاجتهم الكثير، ومن أولائك الفلاسفة الذين برزوا في عصر المرابطين " ابن باجة"[22] (480-523هـ)، الذي يعد أبا للفلسفة العقلانية الاسلامية، وبالتالي هو أول من وضع الاسس لقيام فلسفة تعتمد العقل المجرد البعيد عن الدين حيث حقق امتيازا وتفوقا ظاهرين. ويجمع المؤرخين على أن ابن باجة كان في مختلف أطواره رجلا اجتماعيا وسياسيا ورجل علم وأدب وشعر وفلسفة في ان واحد. قال ابن أبي أصبيعة عن مشاركته في سائر العلوم: "

[20] عبد الكريم التواتي: الاوضاع الثقافية والادبية في العهد المرابطين، مجلة دعوة الحق، العدد7، نونبر 1980، ص: 64.
[21] محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس، مرجع سابق، ص: 73

[22] ابن باجة: هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة لبتجيبي السرقسطي، ولد في أواخر القرن الخامس الهجري، تفتحت بوادر شخصيته في مسقط رأسه- سرقسطة- غادر موطنه في اتجاه المغرب عبر بلنسية واشبيلية حتى وصل الى فاس، كانت وفاته في منتصف القرن السادس الهجري.

كان ابن باجة متميزا في الادب والعربية، حافظا للقران متقنا لصناعة الموسيقى، وصناعة الطب..."23.

من المعروف أن ابن باجة كان أول من اشتغل بنشر علم الفلسفة في المغرب وبصورة شبه معترف بها ورسميا، ويعترف جميع الدارسين للفلسفة المغربية أن فلسفة ابن باجة تمتاز بالاختصار المركز والتنسيق والعقلانية لبنائها على ركائز رياضية وطبيعية تعتمد العقل المجرد دون الالتفات الى الاعتبارات الاخرى، يقول الدكتور فروخ موضحا استقلال الفلسفة المغربية عن أختها الشرقية: " ان الفلسفة المغربية تدارسها روادها وأقطابها ذاتيا ومجرد لا حبا في المال كما فعل ابن سينا ولا دافعا عن ايمان العامة كما فعل الغزالي، وقد تواصلت حلقاتها انطلاقا من ابن باجة الى محاولة ابن طفيل – حي بن يقظان– الى ابن رشد الذي قعد هذه الفلسفة وبلورة ذاتيتها كموضوع مجرد ومستقل "24. كما كان متفوقا في علم الفلك ومهتما بصناعة الطب، وله كذلك تصنيفات في الرياضيات والمنطق والهندسة الا أن تبحره هذا كان سبب اغتياله وتسميمه، حيث أنه لم يتمكن اعداؤه من الفقهاء والوصولين من تسكيته، وكان الفتح بن خاقان من التزعمين لذلك التحريض من خلال ماكتبه في كتابه "القلائد"، كما لم يتمكنوا من محاربته في الميدان الطبي حيث اضطروا في النهاية وعلى رأسهم أبو علاء بن زهر القرطبي أن يكيدوا له حتى تم تسميمه، ومن بين مؤلفاته التي تنم على ثقافته:(شرح وتعاليق على كتب أرسطو، وكتاب شروح وتعاليق على كتاب أبي نصر الفارابي في الصناعة المذهبية).

الاهتمامات التاريخية عند المرابطين: لقد كانت اهتمامات المرابطين بهذا المجال جد ضعيفة اذ لم نقل منعدمة خاصة المرحلة الاولى من تكوين الدولة اذ لم تعرف بعض النمو والازدهار الا في أواخر العهد المرابطي وبداية ظهور الموحدين25، فأهم الكتب التي بقيت من هذه الفترة كتاب " البيدق" لابي بكر الصنهاجي الذي وردت فيه تفصيلات عن نشأة الدولة الموحدية وعن المهدي بن تومرت، كما يعد كتاب القاضي عياض " ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك" من ابرز الكتب التاريخية في هذه الفترة الذي تعرض فيه لحياة أئمة مذهب مالك في عصره.

لكن رغم هذا النضوب الذي عرفه هذا المجال فقد برز بعض المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ المغرب في هذه الفترة ولو بصفة جزئية ، ونخص بالذكر هنا أحد أعلام المؤرخين وأصحاب الاخبار في العصر المرابطي، أبو القاسم بن خلف بن عبد الملك بن مسعود القرطبي (494- 578هـ)، من قرطبة درس على أشهر أساتذته أمثال: أبي بكر بن العربي وأبي الحسن شريح بن محمد وغيرهم. كتب عدة مؤلفات أشهرها كتاب " الصلة" الذي جاء كتكملة لكتاب ابن القرضي " تاريخ العلماء والرواة في الاندلس" ولقد فرغ من تأليفه بقرطبة في سنة 534هـ، وجاء ابن الابار بعده، فوضع

[23] عبد الكريم التواتي: الاوضاع الثقافية والادبية في العهد المرابطين، مجلة دعوة الحق، العدد الثاني، 29 مارس 1982، ص: 73.
[24] عبد اكريم التواتي: الاوضاع الثقافية والادبية في العهد المرابطين، مجلة دعوة الحق، العدد الثاني، 29 مارس 1982، ص: 56.

[25] ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الاول، مرجع سابق، ص: 247.

ذيلا سماه" المكملة لكتاب الصلة" ويعتبر كتاب الصلة هذا من أنفس و أوثق مصادر التاريخ الاندلسي، فهو يضم أكثر من 1500 ترجمة لعلماء الاندلس ورواتها ولا سيما علماء قرطبة26، وكان لأبو القاسم بن خلف مؤلفات أخرى غير "الصلة" كـــ (كتاب الغوامض والمبهمات، المحاسن والفضائل في معرفة العلماء الافاضل).

وخلاصة القول يعد أبو القاسم مؤرخ عصره مقدما على أهل وقته وفي هذا الشأن معروفا بذلك حفاظا ممتعا بتاريخه، ذاكر الاخبار الاندلس القديمة والحديثة حتى قصده الناس للاخذ عنه والانتفاع بعلمه ونباغته في هذا المجال27، والى جانب هذه المؤلفات، وضعت كتب أخرى تعد لحد الان مفقودة28 منها:-

١- الديباج في أخبار صنهاجة لمحمد بن علي بن حماد القلعي.

٢- الأنوار الجلية في الاخبار المرابطية لابي بكر بن الصيرفي الغرناطي.

٣- النبدة المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة لعلي بن حمادة الصنهاجي.

الاهتمامات الجغرافية عند المرابطين: حضيت جغرافية المغرب المرابطي باهتمامات واسعة حيث أنصب جغرافيوا هذه الفترة على الدراسة المستفيضة لاقليم المغرب وللمظاهر الجغرافية للكون، ويعتبر أبو عبيدة الله البكري: وهو من أسرة عريقة النسب شريفة المكانة وذلك من خلال الادوار التي قام بها أفراد هذه الأسرة في الحياة السياسية الأندلسية مع الدولة العامرية. ويختلف الباحثون حول تاريخ ولادته، فهناك من يقول أنه ولد في سنة 432هـــ مثل حسن مؤنس، لكن الارجح أنه ولد سنة 413 أو 423هـــ، وكانت وفاته سنة 496هـــ أورد هذه الاشارة أبو القاسم وابن الابار29.

تجلت مكانة البكري العلمية في كونه موسوعيا اذ جمع بين عدة علوم جغرافية و الادب وعلم الادوية، عرف شهرة واسعة في أرجاء الاندلس مما جعله مقربا من ملوك الطوائف حيث اتصل بالمعتمد بن عباد صاحب اشبيلية اذ كان من بين ملازميه ومجالسيه حتى وافته المنية هناك حسب حسن مؤنس. وللبكري عدة مؤلفات في شتى العلوم من أهمها: (كتاب معجم ما استعجم ، وكتاب المسالك والممالك).

يمثل هذان الكتابان نمطين من الكتابة التي سادت في تلك الفترة، فكتاب معجم ماستعجم يعتبر أول المعاجم العامة في أسماء المواضع وان كانت مادته العلمية تكاد تكون مركزة بصفة خاصة على الجزيرة العربية، و لم يقف البكري في هذا الكتاب على ذكر أسماء المواضع فقط، بل حدد هذه المواضيع وذكر ساكينها مما أضفى على الكتاب صبغة جغرافية محظة، كما أن هذا الكتاب لم يختص بالجزيرة العربية فحسب بل وردت فيه مواضيع خارجها مثل بلاد فارس، وما وراء النهر،

[26] عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس، القسم الاول، الطبعة الاولى، القاهرة،1964، ص:541.

[27] ابن الأبار: تكملة الصلة، الجزء الاول، مطبعة السعادة، مصر،1955، ص: 405.

[28] ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الاول، مرجع سابق، ص: 247.

[29] عبد الله الغنيم: مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، مطبعة المدني، الطبعة الأولى، القاهرة، 1974، ص: 20.

وفي الشام، ومصر وغيرها30. أما كتاب المماليك و المسالك فيعتبر أشمل كتاب في الجغرافية الاقليمية.

تطرق البكري لموضوعات مختلفة في الفقه والشعر والجغرافية وغير ذلك مما جعل معرفته واسعة، تنوعت مصادره، لذلك يعتبر احد الهامات الجغرافية البارزة في القرن الخامس الهجري.

*** الاهتمامات الطبية عند المرابطين**

نتج عن الاهتمام الذي أولاه علماء الاسلام الى الطب تقدما باهرا جعله متقدما على جل العلوم، ويقترن تقدم علم الطب والصيدلة حسب عبد العزيز بنعبد الله31، بالمغرب والاندلس بالدولة المرابطية والموحدية. لقد كان لتروع جماعة من الاطباء الاندلسيين الى المغرب ابان الاضطرابات التي عرفتها الاندلس في ظل ملوك الطوائف تأثيرا واضحا على هذا العلم في المغرب المرابطي مما ادى الى بروز بعض الاسر، كأسرة بني زهر التي توارثت ممارسة الطب لمدة ثلاث قرون، ومن بين أفراد هذه الاسرة أبو العلأ زهربن زهر الذي كان طبيبا خاصا ليوسف بن تاشفين بعد أن كان طبيبا للمعتمد بن عباد باشبيلية. ومن أهم مؤلفات أبي العلأ في الطب كتابه" التذكرة"، وهو عبارة عن مجموعة من الملاحظات التي سجلها والده ابن زهر للتعريف بالادوية في مراكش32. ونظرا للمكانة التي يحظى بها الطبيب لذى الأمير المرابطي علي بن يوسف فان هذا الاخير أمر بجمع ملاحظاته الطبية سنة 515هـ.

*** الشعر و النثر عند المرابطين**

اهتم المرابطون من طرف خصومهم بمجافات الادب و الادباء، وعدم العناية بهم، وذوزي يؤكد ذلك: " ان السلاطين المرابطين لم يبدوا كبير العناية بأمر العلوم والفنون، والشعر، وأنهم كانوا يعملون بالاخص على تحطيم الروح الشعرية الاندلسية"33.

والواقع أن عناية المرابطين بالادب أوضح من أن تنكر، فلقد ازدهرت حركة التأليف الادبي وبلغ من نضوجها وتنوعها أن تناولت مختلف ميادين النثر، فعالجوا النقد الادبي وفن الترجمة، فالنشاط الادبي ظل متدفقا في هذه الفترة متوهجا، و لم يضعف أو يهزل، وهذا ما يؤكده عبد الله كنون بقوله:" لقد كانت عنايتهم بأدباء الاندلس على الخصوص فائقة الحد حتى لم يبق منهم أديب مرموق لم ينط به عمل في بلاط أمير المسلمين بمراكش، أو في ديوان أحد الأمراء بالاقاليم"34.

فكان لامراء الدولة وولاتها كبير الاهتمام بالكتاب و الشعراء يقربونهم في عناية وتشجيع وربما كان أكثر هؤلاء رعاية للادب ابراهيم بن يوسف بن تاشفين و عبد الله بن مزدلي.

---

30 نفسه، ص: 32.

31 عبد العزيز بن عبد الله: تاريخ المغرب العصر القديم والوسيط، مكتبة السلام، الدار البيضاء، ص: 3

32 عبد العزيز بن عبد الله: تاريخ المغرب العصر القديم والوسيط، مرجع سابق، ص: 23.

33 عباس الجيراري: التيار الفقهي في العهد المرابطي، مجلة دعوة الحق، العدد الثاني، 29 مارس 1982، ص: 120.

34 عبد الله كنون: النبوغ المغربي، الجزء الاول، الطبعة الثالثة، دار الكتاب اللبنانية للطباعة والنشر، بيروت، 1975، ص: 86.

ولابراز بعض معطيات الظاهرة الأدبية سوف نتطرق الى شخصية من مثقفين ومفكري تلك الحقبة، كنموذج لأدبائها وشعرائها، فالشخصية المختارة هي من مواليد مدينة فاس العاصمة العلمية والروحية للمغرب، وهو أبو زكريا يحيى بن الزيتوني، الفقيه و الاديب الشاعر الذي يحيظ الغموض بتاريخ و لادته واثاره، ووفاته، كان أديبا اريحا خفيف الروح، رقيق الحاشية، حسن المذهب، دون الاتيان بدليل على هذه الاوصاف من اثار الرجل الادبية شعرا أو نثر35.

وبتطرق الى هذه الشخصية نكون قد أعطينا صورة ولو موجزة عن مدى التشجيعات التي حظي بها المجال الادبي من لدن الامراء المرابطين.

الشعر عند المرابطين: تبعا للعناية التي اولاها المرابطين للادب بصفة عامة والشعر على الخصوص، كان لابد أن تنتج حركة شعرية مزدهرة سواء من طرف الشعراء المغاربة أمثال: أبو الحسن بن زنباع، القاضي الطنجي وابن حبوس الفاسي، اضافة الى ابن الزيتوني وغيرهم، أو من طرف الاندلسيين الذين عبروا المغرب للالتحاق بأمراء المرابطين لمدحهم أمثال الاعمى التطليلي .

أما عن طبيعة الشعر فكان ملتزما بجانب الحشمة فلا يشهد فيه هجو مقذع ولا غزل فاحش، أو تهكما لاذعا36، ولعل ذلك راجع الى اهتمام القضاة والفقهاء بالشعر والادب كالقاضي عياض وابن زنباع.

وعرفت بعض الاغراض الشعرية تقلصا وجمود في ظل الحكم المرابطي ونعني هنا بالذكر شعر، الغزل والخمر.

شعر الغزل: لم تضمحل قصيدة الغزل بل خفت نوعا ما- عما كانت عليه في ظل ملوك الطوائف- واقتصرت على شعراء معنيين، كما ظلت تدور حول محورين رئيسيين في بناء موضوعها. هما المرأة و الغلام. الا أنه من الملاحظ أن الغزل نحى اتجاه اخر، اذ أصبح يتسم بنوع من التسامي نحو عواطف نزيهة وترفع عن المعاني الحسية والصور المثيرة، فمن الشعراء الغزالين في هذه الفترة أبو الوليد محمد بن يحيى بن حزم توفي بعد الخمسمائة37.

شعر الخمر: لقد تعرض هذا التيار الشعري لانتكاسة عنيفة وتضائل في عدد شعرائه في ظل الحكم المرابطي، نتيجة لتأثير الطابع الديني العام لسياسة الدولة والذي كانت له بصمات بالغة على معالم الحياة الاجتماعية. وما صدر في هذه الفترة من شعر خمري لم يكن الا مجموعة ضئيلة كانت معظمها لشعراء مخضرمين أي عاشوا معظم شبابهم في ظل حكم ملوك الطوائف أمثال ابن خفاجة الذي عاش مايقرب من أربعين سنة في ظل هؤلاء.

شعر المدح: الذي يعد من بين فنون الشعر العربي الاكثر ارتباطا على مدى التاريخ بمدح الساسة والحكام. متأثرا

[35] عبد الكريم التواتي: الاوضاع الثقافية والادبية في عهد المرابطين، مجلة دعوة الحق، العدد29،2 مارس 1982، ص: 57.
[36] ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ج1، مرجع سابق، ص: 252.

[37] محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، مرجع سابق، ص: 152.

سلبا أو ايجابا بموقفهم منه، ينمو ويزدهر اذا لقي التشجيع و الرعاية، والعكس صحيح يذبل ويضيق اذا لقي اهمالا وزهدا، فانه اصطبغ بصبغة تكاد تكون في عمومها أقرب الى شعر الحروب و المعارك والفتوح اذ نشم منها رائحة الاسلام والتاريخه. ونورد هنا بيتا مقتبسا من قصيدة للاعمى التطليلي يمدح بها ابن يوسف:

جلبت الخيل مشرفة الهوادي تعز على قيدك أو تهون.

ورغم أن الامراء المرابطين لم يتخذوا لهم شعراء رسميين، ولم تكن لهم مجالس رسمية للشعر فانهم أولوا عناية فائقة بالشعر و الشعراء فمن بين الامراء المرابطين الذين ولعوا بالادب وتذوقوا الشعر، ابراهيم بن يوسف الذي عرف بتشجيعه للأدباء فالفتح بن خاقان يزف اليه كتاب القلائد، ويذكر الشاعر ابن خفاجة في مقدمة ديوانه أن الامير ابراهيم هو الذي جمله ينعطف على الشعر مرة أخرى[38].

ومن الملاحظ أن الشاعر المداح عانى أيام المرابطين أزمة ذات حدين مادي وفني فمن الناحية المادية، لم يعد الممدوح هو ذلك الجواد المعطاء الذي يهب القصور و الضياع، أما الناحية الفنية: فالشعر الاندلسي كان يدرك تماما أن الزعماء المرابطين ليسوا من التبحر في الشعر وما يتطلبه من الصقل والنظر[39].

ولقد زعم الشقندي أن شعراء الاندلس رفضوا مدح يوسف، لولا توسط ابن عباد لديهم ما أجروا له ذكر ولا رفعوا لملكه قدرا، ولعل من الاسباب المباشرة لقلة مديح زعماء المرابطين، وهو بعد مركز الحكم عن الاندلس – فالعاصمة كانت في المغرب- وبذلك صعب على الشاعر الوصول الى البلاط فاكتفى بمدح أبنائهم وأبناء عمومتهم.

كما أن العهد المرابطي لم يخل من شعر الهجاء فلقد مزج هذا الفن بين الهجاء الاجتماعي والسياسي، فالاول يغلب عليه طابع التشهير بين شاعر واخر أو بينه وبين خصومه أما الثاني فكانت تغلب عليه نزعة عمومية اذ يعتبر الشاعر هو لسان الغاضبين على الولاة وكذلك القضاء و الفقهاء باعتبارهم أداة يتكئ عليها الحكام، ومما ساعد على تشجيع هذا الاتجاه هي تلك الاوضاع التي أضحت عليها الاندلس من ثورات وانتفاضات شعبية اذ كان الشعراء هم المحرضين على الثورة و التغيير ونقد الفقهاء ورجال الدين ممن يساندون السلطة ويعززون مركزها.

ومن بين الشعراء الذين أعلنوا الثورة ضد الظلم المتسلط على رقاب الناس: ابن خفاجة الذي أرجع كل مفاسد المجتمع الى فساد الرأس المذبر، والاعمى التطليلي الذي حرض أهل اشبيلية على التمرد واعلان الثورة على الحكام، وأخيرا أبو بكر بن محمد الابيض الذي دفع دمه ثمنا لتحديه وصراحته[40].

والى جانب هذه الاغراض الشعرية نجد الشعراء المرابطيين يتعاطون أكثر الى الشعر الديني بكل صنوفه والوانه، اذ توسعت مجالاته في هذا العصر وكثر قائله، وذلك لمجموعة من العوامل تتعلق بطابع الحكم المرابطي.

[38] محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس، مرجع سابق، ص: 82.
[39] نفسه: ص: 81.
[40] محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، مرجع سابق، ص: 254.

النثر عند المرابطين: ان الصبغة الغالبة على هذا الفن هو أسلوب الرسائل الرسمية التي تكاد تخلو من التصنع الفني، ومع ذلك فان اهتمام أمراء الدولة بالكتاب كان اهتماما كبيرا اذ خص البلاط المرابطي بعدد كبير من هؤلاء وكان على رأسهم صاحب ديوان الرسائل، هذا الديوان الذي توجد به طائفة من النساخين يقومون بنسخ الكتب ويوجهونها الى عمال الاقاليم، وفي هذا الاطار يذكر المراكشي:" بأنه اجتمع ليوسف بن تاشفين ولابنه علي من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه في عصر من العصور"41.

وكان أكثر هؤلاء الكتاب من رجال الادب في الأندلس الذين عملوا في ظل ملوك الطوائف أو في قصور العمال المرابطين، هو محمد بن سليمان الكلاعي الاشبيلي ويكنى أبا بكر ويعرف بابن القصيرة، أحد وزراء بني عباد وكتابهم، الذين وفدو الى المغرب لطلب العون والانقاد، ولما استولى يوسف على الاندلس استدعاه ليكون وزيرا وكاتبا في بلاطه، ويصفه ابن الصيرفي في قوله:" الوزير الكاتب الناظم، الناثرالقائم، بعمود الكتابة، والحامل للواء البلاغة، اجتمع له براعة النثر، وجزالة النظم..."42.

نبغ الى جانب ابن القصيرة مسعود بن أبي الخصال الذي تقلد منصب الكتابة في عهد علي بن يوسف، ولد في الاندلس ونشأ بقرطبة وطلب العلم فيها وقد كان له في مهمته الانشائية مميزات شخصية، وقد وصفه عبد الواحد المراكشي بقوله:" انه كان من انبههم وأكبرهم مكانة لديه –يعني علي بن يوسف–"43. ولابن أبي الخصال (ديوان الرسائل)، تداوله الكتاب والادباء واتخذوه نموذجا لرسائلهم وبما أن كتابة الرسائل تعد من بين الوسائل المعتمدة في تطبيق ايديولوجية الدولة وبالتالي تسير علاقاتها مع كل الولاة والعمال للحفاظ على الامن والاستقرار، نجد ابن أبي الخصال يستغل هذه الوسيلة لضرب الامراء المرابطين، وليس لخدمة أغراضهم ودليلنا على ذلك، الرسالة التي وجهها ابن أبي الخصال وأخيه مروان، الى جند بلنسية التي تنم عن احتقارهما للمرابطين ووصفهما اياهم بالبدو والرعاة لا الماما لهم بأمور الحضارة والمدينة44.

بلغ من عناية المرابطين بالادب و الشعر خاصة أن نسائهم كن يتعشقنه وينشدنه، ويحكى أنه كانت لهن مجالسات أدبية، وقد لمع في هذا المجال: حواء بنت ابراهيم بن تافويت وتميمة بنت يوسف بن تاشفين، ونتيجة لهذه الرعاية نبغ كذلك أدباء من أبناء المغرب في فن التوشيح أمثال التطليلي، الاعمى، ابن بقى، وفي فن الزجل ابن قزمان.

لقد كان لاعتراف زعيم الدولة يحيى ابن ابراهيم الكدالي سببا في الانطلاقة الواسعة التي عرفها المغرب فيما بعد،" اننا في الصحراء منقطعون لا يصل الينا الا بعض التجار

41 عبد الله كنون: النبوغ المغربي، ج1، مرجع سابق، ص: 440.
42 حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام الديني والسياسي والاجتماعي والثقافي، ج4، الطبعة2، مطبعة النهضة المصرية، مصر،1982، ص: 510.
43 عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، الطبعة السابعة، دار الكتاب، الدار البيضاء،1978، ص: 298.
44 حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام الديني والسياسي والاجتماعي والثقافي، ج4، ط2، مطبعة النهضة المصرية، مصر،1982، ص: 512.

الجهال حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء، وفينا أقوام يحرصون على تعلم القران وطلب العلم، ويرغبون في الفقه والدين لو وجدوا الى ذلك سبيلا"45.

لقد ساهم الامراء والزعماء الى جانب نشر الدين الاسلامي في احياء الثقافة في المغرب وشجعوا الحركة العلمية بانشاء المدارس التعليمية، فكانت العلوم المتصدرة هي: القران و الفقه و الحديث والتفسير – وهي علوم دينية محضة- ثم العلوم الفلكية والادبية في المرتبة الثانية. ورغم ذلك فقد تعرض المرابطون الى عدة انتقادات عنيفة فيما يتعلق بالمجال الادبي و الفلكي ولقد ساهم في هذه الانتقادات مؤرخون مغاربة و مستشرقين، فعبد الواحد المراكشي أخذ عليهم عدم اشتغالهم بعلم الكلام قائلا:" ودان أهل ذلك الزمان بتفكير كل من ظهر منه الخوض في شئ من علوم الكلام"46.

ولعل صاحب المعجب استند في حكمه على قضية احراق كتاب " احياء علوم الدين" فقضية الاحراق في حد ذاتها تدل على مدى الأهمية التي كانت ممنوحة للفقهاء خاصة في أيام علي بن يوسف الذي كان يخضع لما يفتون به، لقد كان فقهاء الأندلس وعلى رأسهم أبو عبد الله بن حمدين بن قاضي قرطبة، زعماء الثورة على كتاب احياء علوم الدين فتبعهم في ذلك الفقهاء المغاربة بما كان يربط العدوتين – المغرب والاندلس- من مصالح متبادلة، فالمغرب بقوته يحمي الاندلس ويسير شؤون الحكم فيها، والاندلس بمكانتها العلمية تعمل على تثقيف المغرب وتأديبه و بهذا أصبحت الوحدة بين البلدين تخضع لمبدأ الأخذ و العطاء وبالتالي كان حكم فقهاء الاندلس على الكتاب وثم تنفيده من لدن فقهاء المغرب.

انطلاقا من هذه المعطيات يمكن اعتبار قضية احراق كتاب " علوم الدين" ليس تقصيرا من طرف المسؤولين في الاخد من شتى العلوم، وانما اعتبرها الفقهاء كرد فعل للحفاظ على ايديولوجية الدولة – المذهب المالكي- نظرا لموقف هذا المذهب من علم الكلام والتأويل.

أما المستشرق أشباخ فقد كان أكثرهم حقدا وقسوة، ومن ادعاءاته: " كان اولائك الحكام القساة يمقتون القبائل العربية، وثقافتها و يعملون على سحق هذه الثقافة بكل ما وسعوا، فكانوا يطاردون العلماء الذين ينحرفون عن معتقداتهم ويحرقون كتبهم..."47.

ان الصورة الفكرية و الثقافية التي أشرنا اليها، كفيلة برد على الطاعنين اذ رأينا كيف أسس المرابطون مدارس ومعاهد لنشر العلم واستعانوا في ذلك بالعلماء الوافدين عليهم من الأندلس والقيروان، وكان الامراء يجالسون الادباء والفقهاء ويشاورونهم في أمور الدين ومشاكل الحكم، مما ساعد على بروز أعلام كبار في شتى العلوم كأبي علي القالي في الفقه والحديث والقاضي عياض السبتي، وفي الفلسفة مالك بن وهيب و أبو بكر بن باجة، وفي الطب أشتهر أبو العلأ بن زهر بن عبد الملك.

---

45 عباس الجيراري: الادب المغربي من خلال ظواهر وقضايا، ج1، الطبعة الاولى، مكتبة المعارف، الرباط، 1979، ص: 85.

46 عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مصدر سابق، ص: 172.

47 حسن السائح: الحضارة المغربية عبر التاريخ، ج1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1975، ص: 149.

ولم تقتصر حملة المستشرقين على الميدان الفكري فقط بل شملت الادب كذلك، فالمستشرق "ذوزي" يؤكد، ان المرابطين لم يولوا كبير العناية لامر الفنون والشعر[48].

كل هذا بعيد كل البعد عن الصواب، فمغرب المرابطين كان زاخرا بأنواع الادب شعرا ونثرا، فأنجب رجالات ظل التاريخ يتحدث عنهم، فنبغ في هذا الميدان أدباء وشعراء بارزين أمثال ابن الزيتوني، وابن أبي القصيرة، وابن خفاجة.

أما الشقندي فيأخذ على يوسف قلة معرفته وتفقهه للغة العربية وفساد ذوقه الادبي ومثل هذا الادعاء لا يمكن قبوله، اذ لا يعقل أن يكون قائدا عمل على نشر الدين و اللغة لا يتقن هذه اللغة وخير دليل على ذلك بعض المواقف التي سجلها المؤرخون والتي تنم على تفهم يوسف للغة العربية حين كتب ابن القصيرة رسالة مطولة جواب على رسالة الفونسو، فاستثقلها يوسف لطولها وعلم أنها لن تكون مؤثرة، فطلب رسالة الفونسو نفسها وكتب على ظهرها هذا التوقيع: " الجواب ماترى لا ماتسمع".

*** المراجع**

ابن الابار (أبي عبد الله محمد بن عبد الله): تكملة الصلة، الجزء الاول، مطبعة السعادة، مصر، 1955.

ابن خلدون (عبد الرحمان): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، الجزء6، منشورات دار الكتاب اللبنانية للطباعة والنشر، بيروت، 1971.

المراكشي (عبد الواحد بن علي التميمي): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ط7، دار الكتاب، الدار البيضاء،1978.

النويري (أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الارب في فنون الادب، تحقيق وتعليق أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985.

أحمد محمود(حسن): قيام الدولة المرابطية صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة،1957.

حركات (ابراهيم): المغرب عبر التاريخ، الجزء 1، الطبعة1، دار السلمي، الدار البيضاء، 1965.

حسن (حسن ابراهيم): تاريخ الاسلام الديني والسياسي، الاجتماعي والثقافي، الجزء الرابع، ط2، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة، 1982.

السائح(حسن): الحضارة المغربية عبر التاريخ، الجزء1، دار الثقافة، الدار البيضاء،1975.

بن عبد الله (عبد العزيز): تاريخ المغرب العصر القديم والاوسط، مكتبة المعارف، الرباط

الاهواني (أحمد فؤاد): التربية في الاسلام أو التعليم في رأي القابسي، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، 1955.

السعيد (محمد مجيد): الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس، منشورات وزارة الاعلام العراقية، دار الرشيد للنشر، 1980.

[48] عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس، ج1، مرجع سابق، ص: 438.

المراكشي (محمد عثمان): الجامعة اليوسفية بمراكش تسعمئة سنة1357هـ/1937م، المطبعة الاقتصادية، الرباط.

الصقلي (الحسن): مذكرات من التراث المغربي، الجزء الثاني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء،1979.

الجيراري (عباس): الادب المغربي من خلال ظواهر وقضايا، ج1، الطبعة الاولى، مكتبة المعارف، الرباط، 1979.

الغنيم (عبد الله): مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، مطبعة المدني، الطبعة الأولى، القاهرة، 1974.

عنان (عبد الله): عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس، القسم الاول، الطبعة الاولى، القاهرة،1964.

كنون (عبد الله): النبوغ المغربي، الجزء الاول، الطبعة الثالثة، دار الكتاب اللبنانية للطباعة والنشر، بيروت، 1975.

ولد دادة (محمد): مفهوم الملك بالمغرب من انتصاف القرن الاول الى انتصاف القرن السابع هـ دراسة في التاريخ السياسي، دار الكتاب اللبنانية، الطبعة الاولى، بيروت،1977.

حتى (فليب): تاريخ العرب، الجزء الثالث، ط2، دار الكشاف للطباعة والنشر، بيروت، 1953.

حسن السائح: الثقافة والتعليم في عصر المرابطين، مجلة اللقاء، العدد السادس، عشت 1968.

عباس الجيراري: التيار الفقهي في العهد المرابطي، مجلة دعوة الحق، العدد الثاني، 29 مارس 1982.

عبد الكريم التواتي: الاوضاع الثقافية والادبية في العهد المرابطين، مجلة دعوة الحق، العدد7، نونبر 1980.

عبد الكريم التواتي: الاوضاع الثقافية والادبية في عهد المرابطين، مجلة دعوة الحق، العدد2،29 مارس 1982.